جدل

تونس ما بعد الثورة مشغولة بـ... «بكارتها»!

البلد الذي كان يتباهى بحداثته، صار ينظر بريبة إلى الحرية. كتاب نادرة بن إسماعيل «عذارى؟ الحياة الجنسية الجديدة للتونسيات» الذي يثير الجدل هذه الأيام، يكشف عن حجم العطب والفصام الذي يعصف بالمجتمع التونسي، وخصوصاً بعد عام 2010

تونس ــ **نور الدين بالطيب**

«عذارى؟ الحياة الجنسية الجديدة للتونسيات» عنوان كتاب صدر بالفرنسية قبل أيام ليشعل الجدل في المجتمع التونسي، الذي كان يتباهى بحداثته قبل أن يستفيق ليجد أنّ كل ما يتعلق بالحرية أصبح مشكوكاً فيه! في عملها الصادر عن «دار سيراس» التونسية، اقتحمت نادرة بن إسماعيل منطقة كانت مبعدة عن دائرة السؤال في مجتمع عربي إسلامي يطغى عليه التفكير الذكوري. لقد دخلت العالمة التونسية منطقة محظورة ترتبط في المخيال العام بـ «الشرف» و«الفحولة» واحتفالات «ليلة الدخلة» المحفوفة بالطقوس الأسطورية أحياناً، لكن المحللة النفسية التونسية اعتمدت في كتابها على أدوات التحليل العلمي لتصل الى مجموعة من المقاربات والمعطيات الإحصائية عن معدلات رتق العذرية في تونس. هكذا، اكتشفت أنّ الحداثة والحرية، التي تعيشها المرأة التونسية منذ صدور مجلة الأحوال الشخصية في 13 آب (أغسطس) 1956، لم تغيرا شيئاً من بنية التفكير عندما يتعلق الأمر بالعذرية. ما زالت هذه الأخيرة يُنظر إليها على أنّها مقياس للشرف ولعفّة المرأة، ما يدفع 75 في المئة من التونسيات إلى رتق البكارة من أجل إقناع العريس بأنهن عذارى!

أحدث كتاب نادرة بن اسماعيل الكثير من الجدل لأنّه كشف ظاهرة لم يكن كثيرون ينتبهون اليها، وأماط اللثام عن حجم التناقضات التي تعصف بالمجتمع التونسي، فتأخّر سن الزواج الى ثلاثين سنة يُجبر الفتاة على التنازل عن عذريتها في علاقات عاطفية تتوّج أحياناً بالزواج، وغالباً لا يتم الارتباط، لأنّ الشاب التونسي والعربي عموماً يعتقد أنّ الفتاة التي وافقت على خوض علاقة جنسية معه أدّت الى فضّ بكارتها، قادرة على أن تفعل الشيء نفسه مع غيره، وبالتالي، فهي لديها استعداد فطري للخيانة الزوجية! منطق أعرج ومتخلّف يكشف عن العطب الموجود في بنية التفكير العربي، والفصام الاجتماعي والعقل الذكوري الذي يجعل الفتاة التي تفقد بكارتها امرأة «سيئة السمعة». ولذلك تختار الفتيات عملية رتق البكارة لاستعادة العذرية وإنقاذ «صورتهنّ» في ليلة الزواج المعروفة بـ «ليلة الدخلة». ليلة ترتبط غالباً بصورة الدم في المخيال الجماعي في عملية تشبه الاغتصاب الجماعي الرمزي!

لقد كشف هذا الكتاب بالأرقام عن حجم انتشار الظاهرة، وخصوصاً بعد الثورة: بعدما كانت منتشرة خلال العقود الأخيرة، شهدت عمليات رتق البكارة ازدياداً كبيراً منذ كانون الأول (ديسمبر) 2010.

لقد اعترفت 75 في المئة من الفتيات بأنّهن خضعن لهذه العملية التي تصل كلفتها الى حوالى 300 يورو، فالعذرية هاجس حقيقي للفتاة في المجتمع العربي بما فيه التونسي. ورغم ما حققه من حداثة ظاهرة، الا أنّ بنية تفكير بلد الطاهر الحداد في ما يتعلق بـ «المقدس» (والعذرية أحد المقدسات الاجتماعية) لم يتغيّر.

> تلجأ الفتاة إلى عملية ترميم الغشاء بهدف الزواج وتفادي «النفي الاجتماعي»

لذلك وجدت الفتاة التونسية في رتق البكارة حلاً للتوفيق بين تحقيق حلم الزواج، وخصوصاً الأمومة، وتفادي «النفي الاجتماعي» وبين ممارسة حياة جنسية شبه طبيعية قبل الزواج. وقد توقفت الباحثة ملياً عند المعاناة النفسية للفتاة التي تفقد عذريتها في قصة حب، فتجد نفسها وحدها في مواجهة مصيرها الاجتماعي، وتضطر إلى إجراء عملية رتق البكارة ليتزايد حجم عذابها النفسي لأنّها ستعيش كذبة «العذرية» مع زوجها الذي لا يعلم شيئاً عن «ماضيها الجنسي». صحيح أنّ الكتاب ألقى حجراً في مياه راكدة، لكنّ كثيرين يعتقدون أنّ صدوره بالفرنسية خفّف حدة الجدل، فلو صدر باللغة العربية، لكانت بعض الأوساط المتشددة تلقفته واعتبرته مخلاً بالحياء رغم أنّه كتاب علمي لا يخرج عن علم النفس الاجتماعي.

«امرأة الكسكس باللحم» لمحمد بن صلاح

بين دمنهور ونيويورك...

قسّم Vierges? La nouvelle sexualité des tunisiennes الى ستة فصول هي: «المسألة الجنسية»، و«جذور المسكوت عنه في مسألة العذرية»، و«المجتمع واستعادة العذرية» و«الجانب الطبي في العذرية»، و«غشاء البكارة وحقيقة العملية الجنسية» و«استعادة غشاء البكارة خسارة الخسارة». وقد توقّفت نادرة بن اسماعيل مطولاً عند العذرية في المخيال العربي الإسلامي والتحولات الجذرية التي شهدتها العائلة التونسية وبنية الزواج ومقاييسه منذ صدور مجلة الأحوال الشخصية. وقد أدى خروج المرأة من البيت الى تحولات كبرى في الشارع التونسي، لكنّها لم تمسّ ــ حتى الآن ــ بنية التفكير الجوهرية في ما يتعلق بالعذرية.

محاضرة

إيلان بابيه: هكذا أسست بريطانيا للعقيدة الصهيونية

القدس ــ **مصطفى مصطفى**

دور بعض السياسيين البريطانيين في التأسيس عقائدياً للصهيونية والدعم المادي الذي قدّموه لاحقاً شكّلا محور المحاضرة التي ألقاها إيلان بابيه منذ أيام في «معهد كنيون» في القدس تحت عنوان «ألبيون الغادر: التركة البريطانية في فلسطين». علماً أنّ «ألبيون» هو الاسم القديم للجزيرة البريطانية. المؤرخ الإسرائيلي المعروف بقراءته النقدية للأسطورة الصهيونية، بدأ محاضرته بالإشارة إلى أنّ «السياسة البريطانية تجاه فلسطين تشكلت في القرن التاسع عشر من خلال رؤيتين: الدينية للورد شافتسبري، والاستعمارية للورد هنري بالمرستون».

رأى الأستاذ في جامعة «إكستر» البريطانية ومدير «المركز الأوروبي للدراسات الفلسطينية» فيها أنّ «اللورد شافتسبري هو أبو عقيدة إعادة اليهود... ففي خطاباته ويومياته ورسائله، هناك الكثير من المبادئ والشعارات التي استعملتها الحركة الصهيونية». وسرد بابيه قصة اجتماع العشاء (عام 1839) بين المصلح الاجتماعي اللورد شافتسبري ووزير الخارجية آنذاك بالمرستون. في ذلك اللقاء، «حاول شافتسبري إقناعه بإعادة اليهود الى فلسطين، مستنداً إلى حجج دينية، لكن بالمرستون الاستعماري لم يقتنع. لذا، قدّم شافتسبري عام 1840 ورقة إلى بالمرستون من ثلاثين صفحة مليئة بالفبركات والأساطير، جاء فيها أن جميع اليهود في أوروبا يريدون العودة الى فلسطين، وأن اليهود هم شعب مستقل منبوذ، وأنّ إعادتهم إلى فلسطين ستؤدي إلى عودة المسيح وخلاص البشرية».

وأشار صاحب «التطهير العرقي في فلسطين» إلى اقتباسات أُخرى من اللورد شافتسبري، تدل على وضعه أُسس العقيدة الصهيونية في كتاباته، ومنها الرسالة التي بعثها أثناء حرب القرم عام 1853 إلى رئيس الوزراء البريطاني أبردين يقول فيها: «إن سوريا الكبرى هي بلد بلا شعب في حاجة إلى شعب بلا بلد، هل هناك أمر كهذا؟ بالتأكيد هنالك الأسياد القدماء والشرعيون للأرض: اليهود». وذكر بابيه أن «الحركة الصهيونية قد طوّرت كلامه، وصاغت منه شعارها الشهير «شعب بلا أرض، لأرض بلا شعب»». وشدّد بابيه على أن «حافز بريطانيا لاحتلال فلسطين كان موجوداً قبل احتلالها عام 1917، وقبل ظهور الحركة الصهيونية ذاتها»، مستعيداً بعض أسماء الكتّاب البريطانيين الذين كتبوا عن «إعادة الشعب اليهودي إلى فلسطين» مثل توماس برايتمان والسير هنري فينش.

> اللورد شافتسبري كان وراء شعار «شعب بلا أرض، لأرض بلا شعب»

وخلص بابيه في محاضرته إلى أنّه «من دون الاستعمارين الفرنسي والبريطاني، ما كان للصهيونية أن تظهر في أرض فلسطين... القول إن يهود أوروبا كانوا يتحكمون في الامبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر، هو كلام غير دقيق؛ اليهود كانوا غير منظمين وضعفاء. والحقيقة أنّه لما لعب النمساوي الألماني هرتزل دور مؤسس الحركة الصهيونية لولا مصادفة التاريخ كما يقول ميشال فوكو، وموازين القوى التي كانت تدعم الصهيونية».